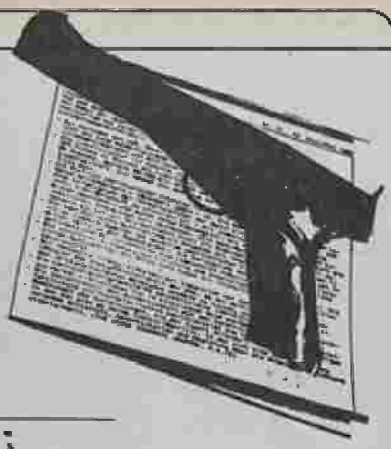

السجين رقم ١٢٧ !

زهيرة البيلى

تدور الأحداث هذه المرة فى قرية صغيرة ، عدد سكانها ٣٠٠ نسمة ، تقع على بعد ٩٥ كيلو مترا من عاصمة بوليفيا . . طرقاتها حجرية غير ممهدة . تبدأ وتنتهى وسط طبيعة خلابة : حيث المساكن الفاخرة التى تضم السكان الأصليين من الفلاحين البسطاء . وفى هذا اليوم بالذات – الأحد مساء – سارت امرأة فى طريق صغير هادىء . . وإذا بها على موعد فى لقاء رهيب فجأة . .

على بعد لمحت شجرة كثيفة لمحت المرأة فتاة جاثية على ركبتيها . فاقتربت منها أكثر وأكثر فإذا بها قد فارقت الحياة . جرت المرأة المسكينة فى حالة رعب تحذر البوليس الذى يمثله فى القرية حارس ريفى لم ير فى حياته جثة داعية . حيث كانت الفتاة قد أصيبت بطلقين ناريين فى الظهر . فارتمت على جذع الشجرة منهارة ، تبكى فى هذا الوضع الغريب على ركبتيها وكأنها فى صلاة طويلة . وفى خشوع وجلال حملها الحارس بين ذراعية ، وذهب ليبث بإشارة لبوليس العاصمة من مكتبه الصغير ، وجلس ينتظر بفارغ الصبر وصول المأمور واثنين من المحققين . وبعد فترة وفى داخل المكتب الصغير سار المأمور فى خطوة حازمة ، وقد بدا نحيفا هزيلا . يحمل شاربا رفيعا فوق شفتين رفيعتين . وهو يدخن بلا انقطاع سيجارا رفيعا جدا ، وبعد أن أضاف مكتبا صغيرا وبعض المقاعد فى هذه الحجرة التى بلغت مساحتها حوالى ٦ أمتار فى أربعة والتى طليت بالجير . . وبعد أن خلع سترته ، ووضعها بعناية على ظهر المقعد ، فتح التحقيق الذى بدأ باستجواب الحارس القروى الذى كان يشبه الهنود برأسه الكبير الذى جف من حرارة الشمس .

وقف بكل احترام ، ودون أن يشعر أحد يعبث بإصبعه الصغرى فى حياطة بطلونه . أما شعره الدهنى فتناثر من تحت قبعته العسكرية . قدم الحارس الريفى البسيط تقريره عن الحادث . القتيل فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، ولدت فى أسبانيا . . كانت مخطوبة لشاب أبوه أغنى رجل فى المنطقة . وقبل ارتكاب الجريمة بعدة أيام فسخت الخطبة . وحزن الشاب حزنا شديدا ، وتردد عدة مرات على الفتاة ليحثها على هذا الموقف ، وكان شابا لطيفا يعتنى الشعر ، وليس من النوع الذى يقوى على القتل .

أما أسرة الفتاة فكانت من ذلك النوع الغريب . الأم فى الثامنة والخمسين . ولدت فى أسبانيا ، والأهم من ذلك أنها كانت تملك المجوهرات . وأمام هذه المعلومة الأخيرة بالذات لاذ الحارس بالصمت . كما لو كان يترك الفرصة للمأمور لكى يستخلص أشياء وأشياء .

أجل المأمور ينظر للحارس بعينين واسعتين ثم سأله :

« تملك المجوهرات . . وماذا فى هذا ؟ فهى ليست المرأة الوحيدة التى تملك مجوهرات . . وضح معلوماتك . »

فأضاف الحارس أن الملابس تأتى إليهم خصيصا من العاصمة . . فالابنة الكبرى للأم فى الثالثة والعشرين من عمرها من مواليد أسبانيا . أما أصغر الأبناء الذى يبلغ من العمر الثالثة عشرة فهو الوحيد الذى ولد فى فرنسا . وفى بداية الأمر كان أهل القرية يعاملونهم بتجاهل . . لأن الأم مطلقة وتعيش بمفردها . وقد تساءل الناس من قبل عن سبب وجودها فى هذا البلد . ولماذا لا تقيم بالعاصمة ؟ كما لاحظ الناس أن هناك من يقوم بزيارتها من وقت لآخر . . وهو شخص لا يبقى طويلا فى زيارته . ربما ساعة أو ساعتين على الأكثر .

وبمرور الوقت تعود أهل القرية على هذا الوضع . فلم يجدوا ضررا من هذا الاختلاط . برغم أنهم لا يعرفون الكثير عنهم .

فكر المأمور أن أول المشتبه فيهم هو ذلك الخطيب السابق للضحية . . وبهذا ستكون العملية ليست معقدة بالنسبة له وفى الإمكان أن ينهى مهمته ويعود بسرعة إلى العاصمة . . ثم استدعاء الخطيب الشاب الرقيق الحالم . الذى اعترف أن انفصال خطيبته عنه سبب له الحزن الشديد والألم ، وأنه تردد عليها عدة مرات ليثنيها عن عزمها . . لكن أن يقتلها فهذا مستحيل . واستطاع الشاب أن يثبت أنه فى فترة وقوع الحادث كان مع صديق له ، وأنه يمكن التأكد من هذا بمجرد عودة ذلك الصديق من العاصمة . . وقال إنه أحس بالحيرة من مثل صاحب فرقة مسرحية متجولة . يمر بالقرية مرة كل عام . وأنه هو الذى وراء فسخ الخطبة .

مازال المأمور يعتقد أن العملية بسيطة . لذلك شكر الشاب على أقواله . وطلب استدعاء الممثل المسرحى ولم يستغرق هذا وقتا طويلا . حيث دخل الرجل مسرعا لمكتب المأمور . وبدا كما لو كان ينتظر هذا الاستدعاء منذ فترة طويلة . . إنه ممثل خرج توا من القالب الكلاسيكى . فى الثلاثين من عمره .

من ذلك الطراز ، البلاى بوى ، يتمتع بأناقة مثل مقتار الصقر . وأجاب بصوت رنان مثير للدهشة وروى أنه كان يلتقى بالفتاة مرة فى العام . وفى آخر مرة اكتشف فجأة أنها تحولت إلى فتاة يانعة رائعة الجمال . وأحس نحوها بحب ملأ قلبه ونفسه . فأقفل على الزواج .

وكانت ردود الممثل إجابات صريحة واضحة . وقد بدا عليه الحزن الشديد . لكن هذا لا يمنع أن يكون له دور ما وتساءل المأمور عما إذا كان من السهل على ممثل أن يحيط عينيه بهالة من السواد . فبدوا غائرتين بهذه الدرجة . فقال الرجل للمأمور حتى لا يضيع وقته . إنه بين الساعة الرابعة والثامنة . أى وقت ارتكاب الجريمة . كان فى المسرح أمام العربة التى يسكنها الممثلون . ويمكنه أن يتأكد من هذا فهم أناس كثيرون . ما عدا جارا واحدا لأسرة الفتاة شرسا يحمل الضغينة للممثل . . وبذلك ودون أن يشعر . قدم الممثل ثالث استدعاء ولكن هذه المرة أيضا أصيب المأمور بخيبة أمل . حقيقة أن العملية بدت بسيطة لكن المشتبه فيهم كثيرون .

اعترف الجار بحبه للفتاة . وأنها كانت قد صدته بشدة فبادت محاولاته بالفشل . . واعترف بكرهه لعائلة الفتاة . حتى إنه وجه بعض التهديدات للقاتل . وفى إحدى المرات صفع أحدها الصغير لطمة بسيطة . . إلا أنه مع ذلك استطاع أن يثبت أنه وقت ارتكاب الجريمة كان يلعب الورق مع بعض الأصدقاء الذين أكدوا أقواله على الفور . وبذلك لم يبق أمام المأمور النحيف الذى يدخن سيجاره الهزيل . إلا قضاء الليلة فى هذا الركن البعيد .

فى اليوم التالى لم يسفر استجواب والدة الفتاة عن أية نتائج حيث أكدت المعلومات السابقة . إنها حقا مطلقة صاحب متحرف أسبانى ، وأنها تعيش وتتولى الإنفاق على أولادها من النفقة التى يبعث بها الزوج كل شهر ، كما أن مواجهة الشهود وسماع التفاصيل العديدة من أهل القرية لم يسفر أيضا عن شىء جديد . فاضطر المأمور إلى تأجيل عودته إلى العاصمة يوما آخر ، ثم يومين . وهكذا مرت الأيام التالية . حيث وجد نفسه ، على عكس ما كان يتوقع على رأس تحقيق غامض .

وبالرغم من اختفاء الأدلة أحس بأن القاتل قريب جدا ويسخر منه إلا أن شهادة وحيدة بدت غريبة ، فى أقوال شقيقة الضحية التى لم تكن إجاباتها محددة . وأحس المأمور أنها لا تقول كل ما عندها ، وكان على حق لأنه فجأة فى اليوم التالى ، يوم ١٠ أغسطس وفى الساعة العاشرة صباحا ، جاءت الأم فى حالة من الذعر والفزع والجنون إلى قسم البوليس . حيث وجدت ابنتها الكبرى جثة هامدة عندما عادت إلى المنزل ، وبسرعة انتشر عبر هذه الجريمة الجديدة . فملأ القرية كلها ، وتجمع المئات حول المنزل مثل البرق وعندما حضر المأمور ورفاقه الثلاثة من المحققين والحارس القروى كانت الضحية الثانية تجلس على المقعد أمام المرآة ورأسها مائل على صدرها . وعلى حافة المشفين سال خطان رفيعان من الدماء ، صنعا بركة من الدماء تحتها . وقد أصيبت بطلقين ناريين من نفس العيار ، مثل شقيقتها الصغرى .

وقد اخترقت الطلقة الأولى الذى الأيسر ومزقت الأخرى الشريان . وبعد المعاينة ثبت أن القاتل لم يدخل الحجرة التى كانت إحدى نوافذها مفتوحة . وكان من الواضح أن الفتاة هى التى فتحتها . فلم يكن هناك أى أثر لاستخدام العنف . وقد تربص القاتل بالفتاة وانتظر خروج الأم وقتلها . ومن بين الأشجار الكثيفة وعبر النافذة المفتوحة صوب سلاحه إلى ظهر الفتاة التى جلست إلى المرآة تهم بزينتها وارتكب الجرم جريمته بكل دقة لأن الإصابتين أدتا فورا إلى الوفاة .

فى الخارج كانت هناك بعض الآثار الواضحة التى تقود إلى منزل الجار . حيث تختفى هناك . كما أن كلاب الحراسة لم يسمع لها نباح على الإطلاق . لذلك أصبح الجار أول المشتبه فيهم والمتهم رغم أنه قدم ادعاء لا اشتباه فيه

لقد حير الحزن الدفين على أهل القرية

هذه المرة . لذلك كان على المأمور أن يعترف لرؤسائه بأن العملية بدأت تأخذ أبعادا أكبر مما فأرسلوا إليه من العاصمة اثنين من المحققين السريين . وإلى عشر رجالا حيث قرروا بدء العملية من الصفر . وهذا يعني أنهم في اليوم التالي لوصولهم منذ الساعة الثامنة صباحا بدأوا من جديد في استجواب المتهمين الثلاثة : الخطيب والممثل والجار المجهول . واستمر التحقيق حتى الساعة التاسعة مساء . وكان المتهمون كما هم . لكنهم اتهاروا تماما من شدة الإرهاق والتعب . هذا مع العلم أن التحقيق لم يتقدم خطوة واحدة . ولم يتمكن البوليس من الحصول على اعتراف واحد .

وانتظروا لدورهم في الاستجواب . أعضاء الفرقة المسرحية . وأسرة الجار . بفارغ صبر بعد أن اختلطوا بسكان القرية الذين أذهلتهم الأحداث المتتالية . وانتقدوا بحرارة ضعف البوليس .

وكانت الساعة التاسعة مساء عندما دبت الاضطرابات وسط الناس . وتعالى صراخ النساء بشق ظلام الليل . وأخذت الكلاب تنبح والأطفال تصرخ . ووسط هذه الضجة ظهر رجل اندفع فجأة ودخل كالاعصار إلى مكتب المأمور ودون أن يسترد أنفاسه قال :

« سيدي . كنت مارا بالقرب من منزل المرأة الأسبانية . وسمعت صوت طلقين ناريين . وحتى لا أكون ضحية جديدة فضلت الفرار . وها بعض الناس على الفور . وجرى يستقل سيارته . ليكون بعد خمس دقائق أمام المنزل الذي بدأ في ظلام حالك . وقد انقطعت عنه الحياة . حيث لا أثر لكائن الحراسة . كما لم يسمع صوت الأم أو الابن . وتحلر شديد دخل المأمور والحراس الحديقة ثم أخذوا يفتشون الموقع حول المنزل الصغير ولم يكن هناك أثر لصوت أو صوت . ولكنه في النهاية عثر على نافذة واحدة مفتوحة تسللها . وتحت ضوء البطارية الكهربائية اكتشف جثة الأم التي قتلت هي الأخرى بطلقين في الرأس . كما لطخت الدماء الأرض والسجاد . أما الابن الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره فلم يكن له أي أثر . وبالبحث الذي انتشر في الضواحي تم العثور على الكلبين . أحدهما هائم على وجهه بالقرية على بعد عدة كيلو مترات وقد تلطخ بالطين . وانتفش شعره بحدة . وبدا عليه الإرهاق من الجري ولسانه مدلى والآخر عثر عليه قتيلا إثر طلق ناري في الرأس . وبسرعة فكر البوليس في الاستعانة بالكلب الذي بقي على قيد الحياة لاقتفاء أثر المجرم . وسط الظلام الحالك . وعلى أطراف غابة على مسافة أربعة كيلو مترات من القرية اكتشفوا آثارا عديدة لحوافر خيل حيث وقفت الخيول في هذا المكان ولفترة طويلة .

وهي « مربوطة . في إحدى الأشجار كان هذا كل ما في الأمر . وأقل الأمور غرابة . أما الفرد الوحيد الذي نجا من هذه الأسرة والذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره فقد اختفى تماما .

وفي نهاية الأمر وبالرغم من كل شيء ذهب الناس ليخلدوا إلى النوم .

وفي اليوم التالي ذهب تاجر المواشي يحكي للمأمور أنه في ليلة وقوع الجريمة لمح رجلين يختفيان وسط الأشجار وعندما مر أمامهما كفا عن الكلام .

لكنه تذكر أنه تعرف على صوت أحدهما . وهو ابن العمدة الذي كان من المشكوك . وهذا الشاب لم يستطع إثبات مكان وجوده أثناء ارتكاب الجريمة . كما رأت بعينيه من خلال زجاج نافذة حجرة الأم . أنكر ابن العمدة بشدة واحتج على موقف البوليس . لكن اللعبة استمرت عما قيد

تصميم رسم ف

الكفاية . فأرسل على الفور إلى السجن المركزي بالعاصمة . وعاد المحققون إلى العاصمة معتقدين أيضا أن مهمتهم قد انتهت . إلا المأمور الجريء الذي كان يدخن سيجاره النحيف بين شفتيه ونحت شاربه الرفيع العاتب .

ولم يكن في حاجة إلى خمسة عشر رجلا للوصول إلى هذه النتيجة حيث إن ابن العمدة لم يكن سوى واحد ضمن المشتبه فيهم ومن المتهمين الذين لا يعترفون لأن أحدا منهم لا يريد أن يقر أنه مذنب . فالأدلة أمام البوليس غير متوافرة . وأثناء عمليات البحث والتفتيش في مسرح الجريمة . تم العثور على صورة لرجل أثار اهتمام البوليس . لأنه تلقى من انتربول مذكرة تقريرا هاما يتضمن أنه في يوم ١٩ سبتمبر عام ١٩٤٦ حاول أحد الضباط المتعصبين اغتيال رئيس جمهورية بوليفيا . وبهذا الأسلوب نشرت الصحف الخبر . ولفت أية وجهة نظر لابد أن يكون الضحى معقدا سياسيا حذرا وعلى دراية بما يحدث في بوليفيا في هذه الفترة بالذات .

وفي نفس اليوم تجمعت الجماهير الساخطة بالسجن المركزي واقتحمت زنزانة الضابط حيث قاموا بمشاجرة مع بعض المسجونين السياسيين الآخرين .

وبالطبع لم تكن هذه الحادث أية أهمية بالنسبة لتحقيق المأمور . إلا أنه نتيجة العصيان والتمرد في عشرين سجنا . من بينها السجن الذي يضم ابن العمدة لم يكن أمامه الوقت ليذهب بعيدا فقد استدعي المأمور في اليوم التالي على عجل إلى العاصمة . وفي إحدى الحدائق العامة على مقعد خشبي اكتشفت جثة تعرف عليها على الفور . فهي لابن العمدة . وأحس المأمور هذه المرة أنه تفوق على المحققين السريين فتناول سيجاره النحيف الذي أخذ يمضغه في نشوة وانتصار .

وكان المأمور على حق . فهذا المسكين لم يكن سوى كومبارس في العملية أما المجرم الحقيقي فمازال طليق السراح . وهو بالطبع الذي قتل ابن العمدة بعد أن تبين أنه يعرف الكثير . ولابد أنه غادر بوليفيا في نفس هذه الساعة .

لم يستند المأمور في تحقيقه إلا على صورة ذلك الرجل الذي يبلغ حوالي الخمسين من عمره . الصورة التي تم العثور عليها في حجرة القتيل الأم . والتي تعرف عليها الانتربول كواحد من أهم الشرايين في برشلونة . فهي لرجل حسن المظهر . أشقر اللون ذي وجه صارم . نزيل قديم بفندق جمعية حماية شباب برشلونة . وعلى مدى أحد عشر عاما كان يحمل الرقم ١٢٧ . وفي سجلات الحالة الاجتماعية كانت بياناته كالآتي : « ولد يوم ٣ سبتمبر عام ١٨٨٦ . مجهول الأب والأم . وأنه منذ كان في الحادية عشرة من عمره . حتى الرابعة والثلاثين من عمره . كان يعمل في السيرك . حيث مارس أعمالا عديدة متنوعة مختلفة والتي بغتة مساء وقع في غرامها وعاشا لمدة سنتين في سعادة تامة لتهجره – بعد ذلك – لتتزوج من صاحب مصرف . لكنه عندما عثر عليها ثانية كانت لها بنتان . وقد طلقت من الضراف . وأمام تلك الأحداث وقفت المرأة في حيرة فاستأنفت حياتها مع رجل السيرك الذي رزقت منه بطفل . لكنها للأسف لم تجد نفس الرجل الذي عهدته في الماضي . لقد بدا مختلفا تماما . وأصبح شريما مدمنا للخمر . ولم يعد شريكا . الأمر الذي جعله يقضي بعض الأيام في السجن . فاستغلت المرأة فرصة إحدى احتفالاته الاضطرارية وفرت الرحيل لثانية مرة . خوفا من غضبه وبطشه . والاستقرار في بوليفيا وسط أولادها الثلاثة . أما بالنسبة لهذا الأب فقد كانت الأم والابن هما الشيء الوحيد الذي يربطه . بمسقط عليه . ولم يكن يتبدد عن ظل يتنقل على مدى ثلاثة عشر عاما في العالم كله . وكان في الحقيقة يبحث عنهما . حتى نجح الأم ونجيا وهذا هو الشيء الذي سبب له الجنون الحقيقي . وارتكب جرائمه بالجملة . الجرائم التي لا رحمة فيها ولا شفقة . وبعد أن ارتكب القاتل آخرها . قرر خطف الطفل الصغير . « هذا السبب فقط كان في حاجة إلى من يساعده فتآمر مع ابن العمدة . وأثناء اختفاء يوم ١٩ سبتمبر . ساعده على الهرب . . إذ كان القاتل ضمن أول المتظاهرين الذين هاجموا السجن . فأطلق سراحه ولكن ليسكنه إلى الأبد في نفس الليلة .

بقي الآن على البوليس أن يعثر على هذا الأب المجنون وابنه المخطوف . وتتوالى الأحداث في ظروف غير متوقعة . ففي يوم ١٠ نوفمبر عام ١٩٤٦ سارت عربة تجرها الخيول . تتعدى في برشلونة عندما تحطمت سيارة أحد رجال البوليس الذي ارتدى الملابس المدنية . فشاهد العربة التي بها رجل وابنه فأشار رجل البوليس إلى الحوذي ليتوقف . وبعد السير عدة لحظات جلس رجل البوليس . أمام الرجل الذي بدا هادئا من الظاهر . أما الطفل فأخذ ينظر حوله في دهشة وفزع يتأمل المدينة الكبيرة . لفت نظر رجل البوليس ذلك التشابه الواضح بين الطفل والرجل ومن صور تلقاها صباح نفس اليوم من الأنتربول تعرف على الفور على القاتل الهارب . لكن القيام بأية محاولة داخل العربة مخاطرة كبيرة . لذلك طلب رجل البوليس من الحوذي أن يتوقف أمام جراج ليسأل من فيه عما إذا كان في الإمكان إصلاح سيارته . وبعد لحظات عاد الرجل إلى العربة قائلا إنه لم يعثر على أحد ليقوم بتلك المهمة وأكد أنه سوف ينزل في مكان قريب . لقد بعث رجل البوليس أثناء غيابه عن العربة بإشارة إلى أقرب نقطة

دون أن يدري أحد ولمدة قصد ان سارت العربة ٦٠٠ متر ظهرت فجأة سيارة البوليس الضخمة لتقف بعرض الطريق وتمنع مرور العربة التي تجرها الخيول . وقفز أربعة من رجال البوليس داخلها ورفع القاتل يديه في وجه لكنه تردد لحظة فأخرجها فأرغة . . وقال إنه لم يشأ إطلاق النيران من أجل ابنه . الابن الذي سلم لجمعية حماية شباب برشلونة حيث كان الأب فيها من قبل بحمل الرقم ١٢٧ وإذا كانت هذه عودة لطبيعة الأمور . فإنها كانت طالما